أنا أتخيَّل إذن أنا موجود:
قراءة في كوجيتو جان بابتيست برينيه عبر إرث ابن رشد

كاتيا نادر

ملخّص (Abstract)

يقترح جان بابتيست برينيه في Je fantasme تحويلًا منهجيًّا للكوجيتو الكلاسيكي: من Je pense donc je suis (ديكارت) إلى Je fantasme donc je suis؛ أي إلى كوجيتو يقوم على الخيال بوصفه شرطًا لوجود الذّات وتشخّص العقل المشترك داخل الفرد. يستعيد برينيه تراث ابن رشد ليعرض الخيال كموضوع متحرِّك (subiectum movens) يعمل وسيطًا فعّالًا بين المحسوس والمعقول، ويمنح العقل الهيولاني قدرة التشخّص والتّأريخ داخل التّجربة الفرديّة.

يهدف هذا البحث إلى تفكيك أطروحة برينيه، توضيح آليّات تحويله للكوجيتو، ومقارنة نتائجه مع الكوجيتو الديكارتي، مع إبراز دلالات هذا التّحويل على مفهوم الذّات واليقين. المنهج يجمع بين القراءة النّصّيّة الدّقيقة، المقارنة التّاريخيّة ـ الفلسفيّة، والتّقييم النّقدي. النّتائج تُظهر أنّ كوجيتو برينيه لا يكتفي بتقديم بديل تأويلي، بل يفتح أفقًا لإعادة التّفكير في علاقة الخيال بالعقل والذّاتيّة المعاصرة.

كلمات مفتاحيّة: الكوجيتو؛ الخيال؛ ابن رشد؛ برينيه؛ ديكارت؛ الذّاتيّة؛ subiectum movens.

الإشكاليّة البحثيّة: كيف يُعيد جان بابتيست برينيه صياغة الكوجيتو من «أنا أفكّر» إلى «أنا أتخيّل» عبر استحضار ابن رشد، وما دلالات هذا التّحويل على مفهوم الذّات، على وظيفة الخيال، وعلى علاقة العقل المشترك بالفرد؟

أسئلة البحث

- ماذا يقصد برينيه بعبارة Je fantasme donc je suis، وكيف تختلف هذه الصّياغة عن الكوجيتو الديكارتي؟
- كيف يستحضر برينيه ابن رشد لبيان دور الخيال في تشخّص العقل الهيولاني داخل الفرد؟
- ما دلالات هذا التّحويل على مفهوم الذّات، على شروط اليقين، وعلى البعد السّياسي للمعرفة؟

أهداف البحث

- تفسير مقصود برينيه من عبارة Je fantasme donc je suis في سياقها النّصّي.
- توضيح مفهوم subiectum movens كما يستحضره برينيه من ابن رشد، وبيان آليّات تشخّص العقل الهيولاني المشترك.
- إجراء مقارنة نقديّة بين الكوجيتوين (ديكارت/ برينيه) واستنتاج انعكاسات هذا التّحويل على قضايا فلسفيّة معاصرة تتعلّق بالذّات، والوعي، والسّياسة المعرفيّة.

المدوّنة والمنهجيّة وبنيّة البحث: المدوّنة: Je fantasme - Averroes et l'espace potential (PDF)

المؤلّف: جان بابتيست برينيه Jean-Baptiste Brenet

دار النشر: Verdier. تاريخ الإصدار: 2017.

المنهج المتّبع يجمع بين القراءة النّصّيّة الدّقيقة، والتّتبّع التّاريخي ـ المقارن لمواقف ابن رشد وابن سينا وأرسطو وديكارت، ثمّ التّقييم النّقدي الفلسفي. النّتيجة المتوقّعة هي تقديم قراءة مركّبة تظهر أنّ كوجيتو برينيه لا يكتفي بتقديم بديل تاريخي أو تأويلي لكوجيتو ديكارت، بل يفتح أفقًا لإعادة التّفكير في علاقة الخيال بالعقل، وفي كيفيّة تشكّل الذّات عبر صور تتجاوز حدود الوعي الانعكاسي. وتتمثّل المدوّنة الأساسيّة في كتاب جان بابتيست برينيه Je fantasme مع استدعاء نصوص مختارة لابن رشد وديكارت كمراجع تاريخيّة. وينتظم البحث وفق بنيّة هندسيّة تتوزّع على مقدّمة، ويليه الفصل الأوّل المخصّص للكوجيتو الديكارتي وإشكالاته، ثم الفصل الثّاني الّذي يدرس برينيه وابن رشد من خلال الخيال كموضوع متحرّك، وصولًا إلى الفصل الثّالث القائم على المقارنة النّقديّة، وينتهي العمل بخاتمة تركيبيّة وقائمة للمراجع.

المقدّمة

تُعدُّ عبارة ديكارت الشّهيرة «أنا أفكِّر إذن أنا موجود» (Cogito, ergo sum) نقطة انطلاق مركزيّة في تأسيس الذّاتيّة الحديثة؛ فهي تحوّل الوجود إلى نتيجة مباشرة للوعي الانعكاسي، وتمنح الأنا مركزيّة معرفيّة لا منازع لها. وفي مقابل هذا السّمت الحداثي، يقترح جان بابتيست برينيه في كتابه Je fantasme انقلابًا منهجيًّا جذريًّا، مفاده أنّ اليقين الوجودي لا ينبع بالضّرورة من الفعل الانعكاسي للفكر الخالص، بل من فعل الخيال ذاته، حيث يُعيد صياغة الكوجيتو إلى: Je fantasme donc je suis؛ أي «أنا أتخيّل إذن أنا موجود». ومن هذا المنطلق، يروم برينيه إلقاء ضوء جديد على فكر ابن رشد، الّذي يتناول علاقة الذّات البشريّة بالعقل في عمليّة المعرفة، مثيرًا أسئلة عريضة حول معنى عبارة «أنا أتخيّل» وكيف تشكّل أساسًا لوجود الإنسان، وماذا يفعل الفرد عندما يفكّر. وإذ يوضح معالم الفكر الرّشدي وتاريخ الفلسفة الوسيطة، فإنّه ينطلق من ملاحظة أساسيّة مفادها أنّ مصطلح الكوجيتو ليس حكرًا على العصر الحديث، بل يشكّل أيضًا أساس علم العقل لدى الشارح الأكبر، مؤكّدًا في مؤلّفه أن "جعلت أوروبا ابن رشد عدو الكوجيتو، الّذي يفهم على أنه مبدأ العقلانيّة. ولا شك أنه كان في الحقيقة المفكّر العبقري للتفكير الّذي يفهم (...) على أنه المجال ذاته الّذي يلتقي فيه العام والخاص...":

(L'Europe a fait d'Averroès l'ennemi du cogito, saisi comme principe de la rationalité. Sans doute fut-il en vérité le penseur génial de la cogitation, conçue, dans un chiasme entre phylogenèse et ontogenèse, comme le terrain même de

recouvrement du général et du singulier, du dehors et du dedans, de l'atemporel et de l'historique, des signes et de la langue, de l'ici et du là). (Brenet, 2015, p. 12).

تستند قراءة برينيه إلى الإرث الرّشدي الّذي صوَّر العقل الهيولاني كقوّة مشتركة تتشخّص داخل الأفراد عبر الخيال؛ حيث لا يظلّ الخيال تبعًا ثانويًّا للفكر، بل يصبح موضوعًا متحرِّكًا يحمل شروط ظهور المعقولات ويعمل وسيطًا فعّالًا بين المحسوس والمعقول. ومن هنا، ينبع هذا البحث من ثلاث حاجات معرفيّة متكاملة؛ أوّلها سدّ الفجوة البنيويّة بين منطق اليقين الانعكاسي ومنطق تشكّل المعنى، وثانيها إعادة قراءة التّراث الفلسفي العربي الرّشدي في ضوء قضايا فلسفة العقل والذّاتيّة المعاصرة، وثالثها تقديم إطار مفاهيمي يربط البعد الفردي بالبعد الاجتماعي للتّجربة الإنسانيّة. ولعلّ هذا ما يُفسِّر الانقلاب المفاهيمي الّذي يؤسّس له برينيه حين يعلن أنّ هذا الخيال، الّذي هو محمول ودعامة، هو أيضًا موضوع، بانقلاب ما، من حيث هو موضوع، وهي الصّياغة الّتي تختزل قلب أطروحته؛ فالخيال هنا يتحوَّل من مجرّد وعاء وسيط أو حامل سلبي للصّور إلى مصدر فاعل ومحرّك للوجود المعرفي والأنطولوجي، ممّا يفتح أفقًا لتجاوز العزلة الإبستمولوجيّة الديكارتيّة، ويطرح السّؤال المركزي: كيف يجعل برينيه من الخيال شرطًا لوجود الذّات ولتشخّص العقل المشترك داخل التّجربة الفرديّة؟

I. الكوجيتو الديكارتي وإشكالاته

ينطلق رينيه ديكارت في تأسيس مشروعه الفلسفي من إرساء دعائم الشّك المنهجي بوصفه استراتيجيّة إبستمولوجيّة راديكاليّة، لا تتوخّى الهدم في حدّ ذاته، بل تسعى إلى تنقية المجال المعرفي من الرّواسب الدوكساويّة والأحكام المسبقة. في هذا الأفق التّفكيكي، يتحوَّل الشّك من حالة نفسيّة عارضة إلى أداة أنطولوجيّة صارمة تضع العالم بأسره، بمحسوساته ومجرّداته، بين قوسي التّعليق الإبستمولوجي. ومع بلوغ الشّك ذروته برفع فرضيّة الشبح المضلل، يرتطم الذّهن بالحقيقة الّتي لا تقبل الاختزال ولا تطالها أدوات التّشكيك: إنّ فعل الشّك نفسه، بوصفه نمطًا من أنماط الوعي، يستلزم بالضّرورة الوجوبيّة وجود ذات تزاول هذا الفعل. هنا يتبلور الكوجيتو الكلاسيكي: «أنا أفكّر إذن أنا موجود» (ديكارت، 1641)، ليس كاستدلال قياسي تسبقه مقدّمات، بل كوحدة حدسيّة مباشرة يتلازم فيها فعل الوعي مع حقيقة الوجود في لحظة تأمليّة وافدة. هذه الصّياغة لم تكن مجرّد خطوة في نظريّة المعرفة، بل كانت تدشينًا لمركزيّة ذاتيّة حديثة، تنبثق من داخلها سلطة الفاعل المعرفي كمعيار وحيد ومستقل لتأسيس الحقيقة والإمساك بزمام العالم الخارجي.

تتأسّس بنيّة الكوجيتو الديكارتي على آليّة الوعي الانعكاسي، حيث الارتداد الدّائم للذّات نحو باطنها يشكّل الضّمانة الوحيدة لليقين. الذّهن هنا لا يتعرّف على موضوعاته إلّا من خلال التّعرّف على ذاته وهي تتمثّل تلك الموضوعات، ممّا يجعل العلاقة بين الأنا والعالم علاقة وساطة انعكاسيّة محضة. ومن أجل صيانة هذا اليقين من عوارض الوهم، يضع ديكارت معيارين صارمين هما الوضوح والبيان؛ فالأفكار الصّادقة هي تلك الّتي تتبدّى للذّهن الحاضر والمستبصر بكيفيّة جليّة لا تترك مكانًا للبس، وتتميّز عن غيرها بحيث لا تختلط بما ليس منها. هذا التّحديد يفرز معيارًا معرفيًّا داخليًّا بامتياز، يصبح فيه معيار الحقيقة ذاتيًّا خالصًا، وتتحوَّل فيه الأنا المفكّرة إلى جوهر قائم بذاته (Res Cogitans)، مستغن عن أيّ إحالة ماديّة أو امتداد مكاني للبرهنة على شروط تحقّق وجوده الإبستمولوجي.

بيد أنّ هذا التّأسيس الصّارم للذّاتيّة الانعكاسيّة فرض ثمنه الباهظ على مكوّنات النّفس الأخرى، وفي مقدّمتها الخيال (Imaginatio). ففي سياق البحث عن اليقين التّأسيسي، تعرّض الخيال داخل المنهج الديكارتي لإقصاء بنيوي منظّم، مدفوعًا برغبة ديكارت في عزل الفكر الخالص (Pensée) عن شوائب الصّور الحسّيّة. على الرّغم من أنّ ديكارت يعترف في التّأمّل الثّاني (ديكارت، 1641) بأنّ الأنا المفكّرة هي ذات تشكّ، وتفهم، وتثبت، وتنفي، وتريد، وتتخيّل أيضًا وتشعر، إلّا أنّه يسارع إلى نزع صفة الضّمان المعرفي عن الخيال. الخيال عنده يظلّ قوّة مرتبطة بإنتاج الصّور واستدعائها، وحيث إنّ الصّور تستمدّ مادّتها من الحواس الملتبسة بالخداع، فإنّ الاعتماد على الخيال في تأسيس الأنطولوجيا يمثّل مخاطرة إبستمولوجيّة تفتح الباب لعودة الشّك. إنّ الخيال، في المنظور الديكارتي، لا يملك القدرة على تجاوز عتبة التّابع الثّانوي، إذ يُنظر إليه كقوّة مشوّشة تخلّ بمبدأ الوضوح والتّمايز، ويتموقع دائمًا في مرتبة أدنى من الفكر الخالص المبرّأ من المادّة.

يتجلّى هذا الإقصاء المنهجي للخيال بكيفيّة أكثر عمقًا وعيانًا في التّأمّل السّادس (ديكارت، 1641)، حيث يقيم ديكارت حدًّا فاصلًا بين فعل التّعقّل الخالص (Intellectus) وفعل التّخيّل. لتوضيح هذا التمايز الأكاديمي، يستدعي ديكارت مثاله الشهير حول الشّكل ذي الألف ضلع (الشّكل الألفي). فعندما يفكّر الذّهن في شكل مثلّث، فإنّه لا يكتفي بتعقّله بوصفه شكلًا محاطًا بثلاثة خطوط، بل يتمثّله أيضًا عبر العين الدّاخليّة للخيال كمظهر حاضر أمامه، مستعينًا بجهد خاص من النّفس. أمّا عندما يرتدّ الذّهن لتعقّل الشّكل الألفي، فإنّه يدرك يقينًا وبشكل واضح طبيعته الهندسيّة، لكنّه يعجز تمامًا عن رسم صورة خياليّة متميّزة له في الذّهن، بحيث لا يستطيع التّمييز في مخيّلته بينه وبين شكل ذي تسعمائة ضلع.

هذا العجز يكشف، عند ديكارت، أنّ الخيال ليس مقوّمًا جوهريًّا في ماهيّة النّفس العاقلة، بل هو طاقة عارضة تتطلّب التفاتًا من الرّوح نحو الجسد ونحو العالم المادّي لالتماس الصّور، وهو ما يجعله فاقدًا للأصالة الوجوديّة واليقين الذّاتي الّذي يتمتّع به التّعقّل الخالص المنكفئ على ذاته.

إنّ هذا التّحييد الجراحي للخيال من مركزيّة الضّمان المعرفي ترك وراءه فراغات وفجوات إبستمولوجيّة بالغة العمق في بنيّة الكوجيتو. تتبدّى أولى هذه الفجوات في غياب آليّة واضحة لتشكّل المعنى؛ فالكوجيتو الديكارتي، باكتفائه بالوعي الانعكاسي، يعجز عن تفسير الجسر الرّابط بين المعطى الحسّي المتشظّي والنّواة المفهوميّة الكلّيّة، أي كيف تتحوّل المادّة الخام الآتية من العالم إلى مفهوم مجرّد دون وجود وسيط ديناميكي مصوّر يؤسّس لظهور المعقولات. وتتمثّل الفجوة الثّانية في العزلة السوليبسيّة الّتي وقعت فيها الذّات الديكارتيّة؛ فبتركيزها على الانعكاس الفردي المغلق، أقصت البعد التّشاركي والاجتماعي للمعرفيّة، وباتت عاجزة عن تقديم آليّات تفسيريّة تشرح كيف تتقاطع تمثيلات الأفراد لإنتاج فضاءات مشتركة من المعاني والقواعد المتواضع عليها. أمّا الفجوة الثّالثة، فتكمن في إغفال الشّرط التّاريخي والتّجسّدي للعقل؛ فإذا كان العقل يمثّل مجالًا للمطلق والمشترك، فإنّه بحاجة ماسّة إلى بيئة نفسيّة وسيطة تُتيح له الظّهور والتّموضع والاشتغال داخل التّاريخ الفردي الزّمني، وهو ما عجز كوجيتو الفكر الخالص عن صياغته نظرًا لقطيعته الأنطولوجيّة مع الجسد والصّورة.

من وجهة نظر نقديّة، يمكن القول إنّ التّأسيس الديكارتي لليقين ينطوي على نوع من الاختزال الحادّ والتّعسّف الأنطولوجي في حقّ التّجربة الإنسانيّة؛ فالكوجيتو، في رغبته الجامحة لإحراز الطّهارة المعرفيّة، قام بعمليّة بتر إبستمولوجيّة فصلت الذّات عن جذورها الصّوريّة والجسديّة. إنّ اعتبار الأنا حقيقة مكتفيّة بذاتها عبر الانعكاس المحض يُقدِّم كائنًا مجرَّدًا يعيش في فراغ حجاجي، ويمارس تفكيرًا بلا مادّة، ووجودًا بلا امتداد. هذا الإفراط في العقلانيّة الانعكاسيّة حوّل الذّات الحديثة إلى كيان معزول يُعاني من انفصام بنيوي بين فكر خالص لا يجد طريقًا لتمثّل المادّة، وخيال منبوذ يحمل خامات الوجود دون أن يُعترف بشرعيّته المعرفيّة. إنّ حدود التّفكير الانعكاسي تتّضح بجلاء عندما يغدو هذا التّفكير عاجزًا عن تفسير التّواصل البشري وتوليد المعنى الاجتماعي، ممّا يثبت أنّ اليقين الديكارتي، على الرّغم من قوته المنهجيّة الصّارمة، ظلّ يقينًا صوريًّا جافًّا، يضمن الوجود كحقيقة اسميّة معزولة، لكنّه يعجز عن تفسيره كحركة حيويّة وتجربة تاريخيّة متجسّدة. هذا المأزق البنيوي هو التّمهيد المنطقي والضّرورة الفلسفيّة الّتي ستجعل من استدعاء التّراث الرّشدي مبرّرًا لإنقاذ الذّات من عزلتها، من خلال إعادة الاعتبار للخيال بوصفه الفاعل والموضوع الفعليّ للحركة المعرفيّة والوجوديّة.

II. الخيال كموضوع متحرِّك

يفضي المأزق الإبستمولوجي الّذي انتهى إليه الكوجيتو الديكارتي، جرّاء عزله الذّات في شرنقة الوعي الانعكاسي الصّافي، إلى ضرورة البحث عن بديل أنطولوجي يُعيد ربط الفكر بمادّته والصّورة بجسدها. من هذا المنطلق المنعطف، يتنزّل مشروع جان بابتيست برينيه في كتابه Je fantasme بوصفه محاولة جذريّة لإعادة ترتيب الشّروط المعرفيّة عبر استدعاء التّراث الرشدي. إنّ برينيه لا يكتفي بنقد ديكارت، بل يُقدِّم انقلابًا بنيويًّا يتّخذ من الخيال الرّشدي موضوعًا متحرّكًا (subiectum movens)؛ أي بوصفه الدّعامة الدّيناميكيّة والموقع الأنطولوجي الّذي لا تكتفي المعقولات بالحلول فيه، بل تتولّد وتتحرّك من خلاله. الخيال في هذا الأفق ينخلع عن صفته الكلاسيكيّة كوعاء سلبي أو مخزن للصّور المحسوسة، لينتصب بوصفه فاعلًا مزدوج المعنى: إنّه محمول ودعامة تحفظ الأثر الحسّي من جهة، وموضوع يُحرِّك عمليّة التّشخّص العقلي من جهة أخرى. هذا الانقلاب الصّارم هو ما يعلنه برينيه صراحة في أنّ الخيال ليس مجرّد محتوى؛ بل يصبح موضوعًا في الفعل. إنّ هذا الانتقال بالمخيال من مرتبة المادّة التّابعة إلى مرتبة الفاعل المتحقّق يمثّل حجر الزاويّة في الكوجيتو الجديد؛ فالخيال هنا لا يعود مجرّد أداة لتمثيل العالم، بل يغدو شرط إمكان أنثروبولوجيا وأنطولوجيا الذّات الواعيّة نفسها، بحيث لا يمكن للأنا أن تعي وجودها إلّا بوصفها ذاتًا متخيّلة ومتحرّكة داخل حقل الصّور.

تكتسب هذه الأطروحة عمقها الفلسفي من خلال العودة الدّقيقة إلى البنيّة السّيكولوجيّة والإبستمولوجيّة عند ابن رشد، وتحديدًا في تصوّره الفريد للعقل الهيولاني المشترك (L'intellect matériel). ففي القراءة الرّشديّة، يتبدّى العقل المشترك بوصفه جوهرًا مفارقًا واحدًا وأبديًّا، يكون نوعيًّا بالفعل وفرديًّا بالقوّة، في حين يتوزّع الأفراد الإنسانيون بوصفهم كائنات نوعيّة بالقوّة وفرديّة بالفعل. هنا تبرز الوظيفة الأنطولوجيّة للخيال بوصفه الجسر والوسيط الوحيد الّذي يتيح لهذا العقل المفارق المشترك أن يلج التّاريخ الفردي ويتشخّص داخل التّجربة الإنسانيّة الزيتيّة. إنّ العقل المشترك لا يجد طريقًا للتّحقّق الفعلي في العالم إلّا عبر هيدروليكيّة الصّور الخياليّة الّتي ينتجها الفرد البشري، وهو ما يصوغه برينيه بدقّة استعاريّة بالغة حين اعتبر أنّ العقل الكوني يقف في بذرة؛ ينتظر أن يتجسّد عبر الخيال الفردي. إنّ استعارة البذرة (germe) والتّجسّد (incarné) هنا تكشف عن علاقة حلوليّة وتفاعليّة معقّدة؛ فالعقل المفارق

ليس معطى ناجزًا أو متعاليًا أنطولوجيًّا بكيفيّة تجعله مستغنيًا عن العالم، بل هو إمكان معرفي يظلّ كامنًا وموقوفًا على شرط التّوسّط الخيالي. الخيال الفردي إذن هو الّذي يمنح الكلّي صفة الفعل والتّأريخ، وبدونه يظلّ العقل وجودًا هلاميًّا معزولًا بلا فاعليّة، ممّا يعني أنّ ذاتيّة الإنسان لا تتأسّس عبر انكفاء الذّهن على مفاهيمه القبليّة، بل عبر صيرورة التّجسّد الصّوري الّتي يلتقي فيها الكلّي المشترك بالخاص الفردي.

بناءً على هذا الالتصاق البنيوي بين العقل والصّورة، يُعيد برينيه بناء العمليّة المعرفيّة لا كخطّ ميكانيكي متباعد الحلقات، بل كحركة ارتداديّة وديناميكيّة مستمرة تحدث في صلب حقل المخيلة. فالقوّة المفكّرة (la cogitative) لا تشتغل بعد انقضاء فعل التّخيّل، بل تمارس فاعليّتها الإبستمولوجيّة داخل الخيال ذاته، حيث تعمد إلى تفكيك الصّور المركبة وغربلتها لاستخلاص النّواة المعنويّة الجزئيّة أو ما يعرف بالـ intentio. التّفكير في هذا السّياق الرّشدي ـ البرينيهي هو عمليّة تنقيح مستمرّة وجرد أنطولوجي ينتقل بالوجود من قشرته الحسّيّة الكثيفة إلى لبّه المفهومي المجرّد. ومن ثمّ، فإنّ الخيال يمثّل الحقل الإنتاجي والملازم الّذي بدونه يعجز العقل عن بسط سلطته على الواقع أو تكوين مفاهيم صالحة للتّعميم والاشتغال، وهو ما يوضحه برينيه بأكثر العبارات تكثيفًا حين يرى أنّه عبر الخيال يجد العقل موضع قبضته على العالم الحسي. إنّ مفهوم القبضة (prise) يُحيل هنا على وظيفة إبستمولوجيّة حاسمة؛ فالخيال هو الّذي يُهيّئ للمفارق أسباب النّزول والمطابقة مع العيني، وهو الّذي يمنح المجرّد كثافة وجوديّة تخرجه من التّجريد الصّوري الجاف إلى الفاعليّة الحيّة، ممّا يثبت أنّ فعل التّعقّل لا ينفي الخيال بل يستوعبه ويحتاجه كمادّة دائمة لتشغيله وتأكيد حضوره.

لا تقتصر هذه الفاعليّة المحرّكة للخيال على المستوى النّفسي الفردي، بل تمتدّ لتؤسّس لبُعد سوسيولوجي وسياسي يُعيد صياغة مفهوم الذّاتيّة برمّتها في فضاء المعاشرة المعرفيّة والـ co-agitatio. فإذا كان العقل الهيولاني جوهرًا مشتركًا بين البشر، فإنّ المخيال الفردي يكفّ عن كونه ملكيّة سيكولوجيّة خاصّة ومنعزلة؛ إذ إنّ الصّور الّتي ينتجها الأفراد تتلاقى وتتقاطع لتؤسّس فضاءات تشاركيّة ومجتمعات صوريّة تتجاوز حدود الأنا الذّاتيّة المعزولة. برينيه يستثمر هذا التّموضع ليؤكّد أنّ مجتمع الصّور هو الشّرط الأنطولوجي السّابق لتشكّل مجتمع المعنى وقواعده، وهو ما يُعبّر عنه في مقتبسه الرّابع قاطعًا أنّ مجتمع الصّور يؤسّس مجتمعًا من المعنى. هذا التّلازم البنيوي ينقل الكوجيتو من كونه صرخة فرديّة سوليبسيّة إلى كونه فضاءً حواريًا وتواصليًّا؛ فالذّات لا تضمن وجودها عبر انعكاس باطني، بل عبر انخراطها في فضاء خيالي مشترك. ولأن إنتاج الصّور هو الّذي يؤسّس لإنتاج المعاني الكلّيّة، فإنّ هذه الأطروحة تفتح مباشرةً على أفق السّياسة المعرفيّة وسؤال السّلطة الرّمزيّة؛ فمن يملك القدرة على صياغة الصّور وتوجيه مسارات المخيال الجماعي عبر المؤسّسات الثقافيّة أو الرّمزيّة، يملك بالضّرورة القدرة على صياغة الخطاب العام وتحديد معايير الحقيقة والمعنى وتوزيع المواقع داخل الفضاء الاجتماعي.

على الرّغم من القوّة التّفكيكيّة والجدّة الّتي تُميّز هذا التّحويل المنهجي للكوجيتو عند برينيه، إلا أنّه يظلّ محفوفًا بمآزق إبستمولوجيّة وأنطولوجيّة تستدعي الفحص النّقدي. إنّ جعل الخيال هو الموضوع المتحرّك (subiectum movens) وشرط إمكان الذّات والتّعقّل ينطوي على مخاطرة تفتيت المعايير الموضوعيّة والسّقوط في نوع من النّزعة الذّاتانيّة الجذريّة؛ فإذا كان الوجود المعرفي رهينًا بإنتاج الصّور، فكيف يمكن للفلسفة أن تقيم حدًّا فاصلًا وواضحًا بين خيال منتج لنواة معنويّة صادقة (intentio) وخيال واهم ومضلّل ينتج أطيافًا وأيديولوجيّات زائفة؟ علاوة على ذلك، فإنّ رهن تشخّص العقل المفارق بالمخيال الجماعي ومشترك الصّور يهدّد بتذويب فرادة الذّات الإنسانيّة ومسؤوليّتها الأخلاقيّة والإبستمولوجيّة داخل بوتقة الهيمنة الصّوريّة المشتركة؛ إذ تتحوَّل الأنا من فاعل واعٍ ومنعكس إلى مجرّد ساحة وعاء تتقاطع فيها التّدفّقات الصّوريّة القادمة من الخارج، مما يفرغ الكوجيتو من شحنته التحريريّة ويجعله عرضة للاستلاب الرّمزي. إنّ برينيه، في محاولته لإنقاذ الذّات من عزلتها الدّيكارتيّة، كاد أن يقضي على فرادتها الأنطولوجيّة بدمجها الكامل في فضاء المخيال المشترك، ممّا يضعنا أمام مفارقة فلسفيّة معاصرة: كيف يمكن الحفاظ على ضمانات اليقين والمسؤوليّة الفرديّة الّتي أسّس لها ديكارت، وفي الوقت ذاته الاعتراف بالفاعليّة الأنطولوجيّة والسّياسيّة للخيال بوصفه شرطًا لإنتاج المعنى والمعاشرة الإنسانيّة؟

III. مقارنة نقديّة ـ Je pense مقابل Je fantasme

تتوّج الصّيرورة الجدليّة لهذا البحث بالانتقال من تشريح البنى المنفصلة إلى إقامة مواجهة فلسفيّة نسقيّة بين الكوجيتو الديكارتي القائم على سيادة الوعي الانعكاسي، والكوجيتو البرينيهي ـ الرّشدي القائم على فاعليّة التّجسّد الخيالي. إنّ هذه المقارنة لا تتوخّى المفاضلة التّاريخيّة، بل تسعى إلى كشف التّناقض البنيوي والأنطولوجي بين نموذجين في تأسيس الذّاتيّة؛ حيث يتحدّد المظهر الأوّل لهذا التّناقض في تعارض منطق العزلة الإبستمولوجيّة مع منطق الانكشاف الأنطولوجي. في النّموذج الديكارتي، ينبع اليقين الوجودي من كفء النّفس عن العالم الخارجي وإغلاق نوافذ الحواس، ليصبح الوضوح والبيان ثمرة لانكفاء الأنا على طهارتها المفاهيميّة داخل الـ Res cogitans؛ فالذّات هنا تضمن

وجودها لأنّها تمتلك تمثّلًا شفّافًا وفوريًّا لذاتها وهي تفكّر. وفي مقابل هذا الانكفاء الصّارم، يتأسّس كوجيتو برينيه (Je fantasme donc je suis) على حركة عكسيّة تمامًا، حيث الوجود ليس انطواء بل هو اقتحام صوري؛ فالأنا لا تتوصّل إلى يقينها عبر تجريد نفسها من المادّة، بل عبر مزاولة فعل التّخيّل بوصفه الفضاء الوحيد الّذي يُتيح للعقل الهيولاني المشترك أن يتشخّص داخل الكائن الفردي. اليقين عند برينيه لا يعود معيارًا صوريًّا داخليًّا، بل يتحوّل إلى صيرورة تحقّق حيوي، لا يضمنها انفصال الفكر عن الجسد، بل تضمنها قدرة الخيال على إنتاج المتخيّلات الصّالحة لاستخلاص النّواة المعنويّة (intentio)، ممّا يعني أنّ ديكارت يؤسّس لذاتيّة الملكيّة (أنا أملك فكري)، بينما يؤسّس برينيه لذاتيّة الاستضافة (أنا أستضيف حركة الكلّي داخل خيالي الخاص).

يمتدّ هذا التّباين الجذري ليشمل آليّات تشكّل المعنى وإنتاج المفاهيم؛ إذ يمثّل الكوجيتو الديكارتي نموذجًا للعقلانيّة الجراحيّة الّتي تعمل عبر الحذف والفرز المنهجي، حيث يتمظهر دور التّعقّل الخالص في فصل الأفكار الواضحة والمتميّزة عن الأفكار المشوّشة الّتي يفرزها الخيال المنبوذ. بيد أنّ هذا النّموذج يظلّ صامتًا أمام كيفيّة انبثاق المفهوم من رحم التّجربة الحيّة، ويكتفي بتقديم معيار صوري للتّمييز دون شرح هيدروليكيّة التّوليد المعرفي. وعلى النّقيض من هذا الصّمت المنهجي، يتبدّى كوجيتو برينيه كعقلانيّة إنتاجيّة وحلوليّة، تعيد الاعتبار للخيال بوصفه الـ subiectum movens الّذي يحمل شروط ظهور المعقولات؛ فالمعنى لا يتشكّل عبر الهروب من الصّورة بل عبر الغوص في كثافتها. إنّ القوّة المفكّرة في الأفق الرّشدي لا تمارس ترف التّجريد في فراغ مفاهيمي، بل تقوم بعمليّة جرد مستمرّة وتصفية إبستمولوجيّة لمركّبات الخيال، مستخرجة اللّبّ المفهومي الكلّي من القشرة الحسّيّة الجزئيّة. الخيال هنا ليس طاقة عارضة يمكن للنّفس الاستغناء عنها كما ذهب ديكارت في مثاله حول الشّكل الألفي، بل هو المختبر الأنطولوجي الّذي يمنح العقل موضع قبضته على العالم الحسّي، وبدونه يتحوّل الفكر إلى بنية صوريّة جوفاء تعجز عن إنتاج أيّ دلالة واقعيّة أو ممارسة أيّ فاعليّة تاريخيّة.

يتجاوز الخلاف المعرفي حدود الإبستمولوجيا المحضة ليفصح عن دلالات أخلاقيّة وسياسيّة تُعيد رسم جغرافيا الذّاتيّة في علاقتها بالآخر وبالعالم؛ فالأنا الديكارتيّة، بانطلاقها من الشّك السّوليبسي المغلق، تؤسّس لفردانيّة معرفيّة حادّة، ينفصل فيها البعد الإبستمولوجي عن الفضاء الاجتماعي، حيث يغدو الآخر غائبًا أو مؤجّلًا في لحظة التّأسيس الأنطولوجي الأولى. هذا الانفصال حوّل الذّات الحديثة إلى كيان سيادي متعال، يتعامل مع العالم ومع الآخرين بوصفهم موضوعات للتّمثّل والسّيطرة المعرفيّة. وفي المقابل، يفتح كوجيتو برينيه الباب على مصراعيه لمعاشرة معرفيّة وسياسيّة (conversatio) تشترط وجود الآخر وتلازم المخيال الجماعي؛ فالخيال عنده ليس ملكيّة سيكولوجيّة معزولة، بل هو فضاء حواري وتشابكي تتحقّق فيه الـ co-agitatio (التّفكير المشترك). ولمّا كان مجتمع الصّور يؤسِّس مجتمعًا من المعنى، فإنّ الذّاتيّة البرينيهيّة لا تنبثق من العزلة، بل تتخلّق في صلب التّشابك الصّوري المشترك. الأنا هنا لا تفكّر بمعزل عن مجتمعها، بل إنّ قدرتها على التّعقّل مشروطة بانخراطها في فضاء خيالي جماعي تتقاطع فيه الصّور لتنتج القواعد المشتركة للمعنى، ممّا يحوِّل الكوجيتو من صيغة ذاتيّة سياديّة إلى فضاء تشاركي يتلازم فيه الوعي الفردي مع المخيال الجماعي، ويجعل من المعرفة ظاهرة اجتماعيّة وسياسيّة بامتياز.

وعلى الرّغم من هذا التّباعد البنيوي، لا ينبغي النّظر إلى هذين النّموذجين بوصفهما استبعادات مطلقة تلغي بعضها بعضًا بكيفيّة ميكانيكيّة، بل يمكن تلمّس أفق لتركيب إبستمولوجي معاصر يستفيد من مزايا الكلّ؛ فالتّجربة الفلسفيّة الرّاهنة تُبيِّن أنّ وعيًا انعكاسيًّا خالصًا بلا وسائط خياليّة يظلّ عاجزًا عن تفسير آليّات التّواصل البشري وتوليد المعنى الاجتماعي، وفي المقابل، فإنّ خيالًا محضًا بلا ضمانات حجاجيّة صارمة يهدّد بالانزلاق نحو فوضى الأطياف السّوبجيكتيفيّة والوقوع في الوهم. إنّ التّركيب المنهجي المأمول يقتضي الحفاظ على ضمانات اليقين المنهجي الديكارتي ومعايير الوضوح والبيان كشرط أولي لمنع تفتيت الحقيقة، وفي الوقت نفسه، تبني آليات برينيه الّتي ترى في الخيال حقلًا إنتاجيًّا ضروريًّا لتجسّد المعقولات وتأريخ الوعي. هذا التّكامل البنيوي يتيح صياغة ذاتيّة متّزنة: ذاتيّة تملك القدرة على الارتداد النّقدي نحو باطنها لصيانة يقينها، لكنّها تدرك في الآن ذاته أنّ وجودها الأنطولوجي والسّياسي مشروط بالانفتاح على فضاء الصّور المشتركة الّتي تعجن المعنى وتؤسِّس للمعاشرة الإنسانيّة.

من وجهة نظر نقديّة، يمكن القول إنّ محاولة الانتقال بالكوجيتو من «أنا أفكّر» إلى «أنا أتخيّل» عند برينيه، على الرّغم من حيويّتها الأنطولوجيّة، تنطوي على ثغرة معرفيّة بالغة الخطورة تهدّد بتقويض مشروع التّحرّر الذّاتي الّذي افتتحته الحداثة. إنّ إحلال الخيال كموضوع متحرِّك وشرط أساسي للوجود يضع الذّات تحت رحمة الاستلاب الرّمزي والصّوري؛ فإذا كانت الأنا تتشكّل وتضمن وجودها عبر الانخراط في "مجتمع الصّور"، فإنّها تفقد بالضّرورة مسافتها النّقديّة الفاصلة وقدرتها على الدّحض المستقلّ الّتي منحتها إياها العزلة الديكارتيّة. في سياق المجتمعات المعاصرة، حيث تخضع الصّور لآليّات الإنتاج الرّأسمالي

والهيمنة المؤسّساتيّة الرّقميّة، يتحوّل "المخيال الجماعي" من فضاء للمعاشرة الحرّة والـ co-agitatio إلى ساحة لتصنيع الوعي وتدجين الذّوات. إنّ كوجيتو برينيه يعجز عن تقديم معيار إبستمولوجي حاسم يتيح للفرد التّمييز بين خيال منتج لنواة معنويّة صادقة (intentio) وخيال مستلب تصنعه السّلطة الرّمزيّة لفرض هيمنتها. هذا التّذويب الكامل لفرادة الذّات داخل بوتقة مجتمع الصّور يسلب الأنا حقّها في الشّكّ الرّاديكالي وفي قول "لا" بوجه المخيال السّائد، ممّا يكشف أنّ الكوجيتو التّخييلي، في رغبته لإنقاذ الإنسان من جفاف العزلة الديكارتيّة، كاد أن يلقي به في فوضى التّدفّقات الصّوريّة الّتي تلغي وعيه الانفصالي، وتجعله مجرّد صدى لصور لا يملك سلطة إنتاجها أو التّحكّم في دلالاتها السّياسيّة والمعرفيّة. هذا المأزق النقدي يفرض علينا في العتبة القادمة صياغة أفق تفكيكي يستجوب التّبعات الرّاهنة لهذا الصراع بين الفكر الخالص والخيال المشتبك بالواقع.

خاتمة

تخلص الصّيرورة الحجاجيّة لهذا البحث إلى تقديم حجر زاوية جديد في جدار الذّاتيّة الفلسفيّة، متمثّلًا في الانتقال الجذري من كوجيتو الوعي الانعكاسي الصّافي إلى كوجيتو التّجسّد الخيالي المتشابك. لقد كشف هذا العمل كيف نجح جان بابتيست برينيه، عبر استنطاق فريد للمتن الرّشدي، في زعزعة السّيادة الديكارتيّة الّتي أقامت وجود الأنا على إقصاء الصّورة ونبذ الحواس. إنّ عبارة «أنا أتخيّل إذن أنا موجود» (Je fantasme donc je suis) لم تعد مجرّد صياغة بديلة أو تأويل تاريخي عابر، بل إنّها تتويج لانقلاب أنطولوجي مكتمل الأركان، تحوّل فيه الخيال من رتبة التّابع المعرفي المشوّش والمادّة الخاملة، إلى مرتبة الموضوع المتحرّك (subiectum movens) والفاعل البنيوي الّذي يُهيِّئ للعقل الهيولاني المشترك أسباب النّزول والتّشخّص داخل التّاريخ الفردي الزّمني.

ومن خلال هذا المنعطف المفاهيمي، تمكّن البحث من ردم الفجوات الإبستمولوجيّة الثّلاث الّتي تركها الانكفاء السّوليبسي الديكارتي؛ إذ أثبتت الدّراسةُ أنّ المعنى لا يتشكّل في فراغ التّجريد الجاف، بل عبر عمليّة جرد وتنقيح تمارسها القوّة المفكّرة في صلب حقل المتخيّلات لاستخلاص النّواة المعنويّة (intentio). علاوةً على ذلك، نجحت الأطروحة في إخراج الأنا من عزلتها المعرفيّة لتلقي بها في فضاء المعاشرة التّشاركيّة والـ co-agitatio، مظهرة أنّ مجتمع الصّور هو الّذي يؤسّس بنيويًّا لمجتمع المعنى وقواعده المشتركة. المعرفة في هذا الأفق الرشدي ـ البرينيهي ليست ملكيّة فرديّة مسيّجة بالوضوح والبيان الذّاتي، بل هي استضافة ديناميكيّة وحوار مستمر يلتقي فيه الكلّي المفارق بالجزئي العيني عبر وسيط الصّورة الخياليّة الملازم للفكر.

بيد أن هذا الانتصار المعرفي للخيال يفرض على الفلسفة المعاصرة وقفة نقديّة تستجوب تبعاته ومآزقه الرّاهنة؛ فبقدر ما يُحرِّر كوجيتو برينيه الذّات من جفاف العزلة الديكارتيّة، بقدر ما يُهدِّد بتذويب فرادتها ومسؤوليّتها الإبستمولوجيّة داخل بوتقة التّدفّقات الصّوريّة المشتركة. إنّ النّقد الّذي يصوغه هذا البحث في عتبته الختاميّة يُنبّه إلى خطر الاستلاب الرّمزي الّذي يتربّص بالذّات المتخيّلة في سياق المجتمعات الرّقميّة المعاصرة، حيث يخضع المخيال الجماعي لآليّات التّصنيع والهيمنة المؤسّساتيّة الّتي تحوِّل الصّور من فضاء للمعاشرة الحرّة إلى أدوات لتدجين الوعي وتوجيه الخطاب العام. غياب معيار إبستمولوجي حاسم داخل أطروحة برينيه للتّمييز بين خيال منتج لحقيقة صادقة وخيال واهم تصنعه السلطة الرمزيّة، يجعل الذّات عرضة لامتلاك صور لا تملك سيادة إنتاجها، ممّا يفرض ضرورة دمج الضّمانات الحجاجيّة والارتداد النّقدي الديكارتي مع الحيويّة الحلوليّة للخيال الرشدي لصيانة فرادة الإنسان وقدرته على الرّفض والشّكّ.

تأسيسًا على ذلك، يفتح هذا البحث أفقًا بحثيًّا متجدّدًا يتجاوز مجرّد المقارنة النّصّيّة، ليؤكّد على الأهمّيّة القصوى لإعادة قراءة التّراث الفلسفي العربي ـ الإسلامي، لا بوصفه إرثًا تاريخيًّا منقضيًا، بل بوصفه ترسانة مفاهيميّة حيّة وقادرة على إغناء وتفكيك النّقاشات الرّاهنة حول فلسفة العقل، والسّياسات الحيويّة، ونظريّة الصّورة. إنّ الحوار الّذي أقامه برينيه بين ابن رشد وديكارت يُثبت أنّ تفكيك أزمات الذّاتيّة الغربيّة الحديثة يمرّ بالضّرورة عبر استضافة الفلسفات الّتي تمّ إقصاؤها، وأنّ كوجيتو الخيال يظلُّ أداة نظريّة بالغة الخصوبة لاستكشاف الكيفيّة الّتي يعجن بها الإنسان وجوده ومعناه داخل فضاء مائج بالصّور والتّحوّلات.

كـاتـيـا نـادر
طالبة دكتوراه ـ الجامعة اللبنانية

المراجع

Brenet, J.-B. (2015). Je fantasme: Avec Averroès. Édtions Verdier.
Brenet, J.-B. (2017). Averroès l'inquiétant. Les Belles Lettres.
Descartes, R. (1996). Méditations métaphysiques (J.-M. Beyssade & M. Beyssade, Eds.). GF Flammarion. (Original work published 1641).

ابن رشد، أبو الوليد. (1997). تلخيص كتاب النّفس (تحقيق أحمد فؤاد الأهواني). مكتبة النهضة المصريّة.
ابن رشد، أبو الوليد. (1994). الشرح الكبير لكتاب النّفس لأرسطو: السفر الثالث (ترجمة إبراهيم الغربي). بيت الحكمة.
ابن رشد، أبو الوليد. (2002). فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (تحقيق محمد عمارة). دار المعارف.